

آحمد باشا الجزار

القلعة التي أوقفت نابليون



Joylino

أحمد باشا الجزائر

القلعة التي أوقفت نابليون

كان حامل الرسالة يسير في أزقة عكا الضيقة، ممسكاً بالرسالة بقوة. وكانت الريح القادمة من البحر تحرك ثيابه، فيما تحلق النوارس فوق القلعة. أرسل الرسالة قائد ذاع اسمه في بلدان كثيرة: نابليون بونابرت.

تسلم أحمد باشا الجزائر الرسالة. كان نابليون يخبره بأنه سيتجه إلى عكا. وذكره بانتصاراته السابقة، ودعاه إلى الاتفاق معه. وبين السطور كان هناك تهديد واضح أيضاً. لكن المدينة التي وصلتها الرسالة لم يكن يقودها رجل يخاف ويتراجع بسهولة. رفع أحمد باشا رأسه عن الورقة. أمامه قلعة يجب حمايتها، وأناس يعيشون داخلها.



بدأت حياة أحمد باشا في البوسنة. وفي شبابه ذهب إلى أماكن مختلفة، وتولّى مهام في مصر. واكتسب الخبرة من صراعات صعبة، حتى أصبح أحد أقوى ولاة الدولة العثمانية. اتخذ عكا مركزاً له، وعاش فيها سنوات طويلة.

صار الآن مسنّاً. وخالط الشيب لحيته، لكنه كان يعرف جيداً كيف يدافع عن قلعة. عرفه الناس حاكماً صارماً يفرض سلطته. كان ينتظر أن تنجز المهام التي يكلف بها رجاله، ويحرص على ألا يفوته أي نقص في الاستعدادات. والآن كان سيواجه قائداً شاباً ناجحاً، شديد الثقة بنفسه. وعلى أسوار عكا، ستختبر الخبرة التي جمعها أحمد باشا طوال السنين.



حملت الرسالة التي وُضعت أمام أحمد باشا الجزار توقيع نابليون:
إلى الجزار باشا،

منذ دخولي مصر، أبلغتك مراراً أنني لا أريد محاربتك. لكنك لم تردّ على
عروضي، وأرسلت جنوداً لمحاربتني.

غزة والرملة ويافا الآن في يدي. وخلال أيام قليلة سأسير نحو عكا.
لماذا أسلب رجلاً مسناً لا أعرفه بضع سنوات من عمره؟ وما قيمة بضعة
أشبار أخرى من الأرض إلى جانب البلدان التي استوليت عليها؟
كن صديقي من جديد. أستطيع أن أنفَعك بقدر ما أستطيع أن أضرك.
أرسل ردك مع رجل تفوضه بتمثيلك. إن جاء براءة بيضاء، فسيستقبل
بأمان.

أنتظر ردك قبل أن أتحرك نحو عكا.

بونايرت — يافا، 9 مارس 1799

بعد أن قرأ الباشا الرسالة، وضعها على الطاولة. كان نابليون يعرض
الصداقة، ويعلن في الوقت نفسه أنه سيأتي بجيشه. أما قرار أحمد باشا فلم
يتغير: سيدافع عن عكا.



أعلن أحمد باشا قراره بوضوح أمام قاداته: «هذا ردّنا على نابليون: لن نسلم عكا. الدفاع عن هذه القلعة واجبنا. واستيلاؤه على مدن أخرى لا يعني أننا سنفتح له أبواب مدينتنا. إن جاء بجيشه، فسيجدنا نؤدي واجبنا».

ثم سأل عن الاستعدادات على الأسوار. أي جزء سيُرْمَم؟ وأين ستوضع المدافع؟ وأين سيقف الجنود للحراسة؟ أجاب القادة واحداً بعد آخر. وبعد قليل، علت أصوات المطارق في القلعة، ونقلت مواد البناء، وفحصت مواقع الحراسة. كان قرار الباشا واضحاً في العمل الذي يؤديه الجميع: عكا تستعد للدفاع.



في شهر مارس، وصل الجيش الفرنسي إلى مشارف عكا. نُصبت الخيام، ووضعت المدافع في مواقعها. كان نابليون يأمل أن يستولي على المدينة في وقت قصير. لكن الهجمات الأولى أظهرت أن تجاوز دفاعاتها لن يكون سهلاً.

انتشرت أصوات المدافع فوق البحر. تناثرت قطع الحجارة، وتصاعد الغبار. وثبت المدافعون في مواقعهم. وحين حاول الجنود الفرنسيون الوصول إلى الأسوار، أوقف تقدمهم الخندق الذي أمامهم، والرد القادم من القلعة. فاضطروا إلى التراجع. وحين انقشع الغبار عن عكا، كانت أبوابها لا تزال مغلقة. وسيواصل جنود أحمد باشا الدفاع عنها بعد ذلك اليوم أيضاً.



كانت المدافع الثقيلة التي ستصل بجزءاً مهماً من خطة نابليون. فقد كان يأمل أن يهدم بها أسوار عكا. لكن بعض السفن التي تحملها أُسرت في البحر. فلم تصل المدافع إلى الجيش الذي يحاصر المدينة.

بل إن بعض المدافع التي استُولى عليها بدأ يُستخدم في الدفاع عن عكا. فالأسلحة التي انتظرها نابليون لهدم الأسوار أصبحت الآن في مواجهة جنوده! وكانت الإمدادات والمساعدات تصل إلى القلعة بجزءاً أيضاً. واستفاد أحمد باشا والمدافعون من هذا الدعم، وواصلوا المقاومة. لقد أصبحت مهمة نابليون أصعب بكثير مما ظن.



مرّ يوم. ثم أسبوع، ثم أسابيع أخرى... كان نابليون يهاجم من جديد، وعكا تصمد من جديد. وكانت الفتحات في الأسوار ترمم، ومواقع الدفاع تُقوّى. وفي النهار، كانت أصوات المدافع تُسمع في المدينة، وبين الهجمات كانت أصوات المطارق تُسمع أثناء العمل.

وضع بناء أدواته، ونظر إلى السور المتضرر. وكان الجندي الواقف بجانبه ينظر إلى المكان نفسه. قال الجندي: «تهدم من جديد». رفع البناء حجراً عن الأرض وقال: «إذن سنبنيه من جديد». بهذه العزيمة استمر دفاع أحمد باشا. استعادة القوة بعد كل هجوم، وتسليم المهمة إلى رفيق عند التعب، والاستعداد لليوم التالي... هكذا كانت مقاومة عكا تزداد يوماً بعد يوم.



في شهر مايو، نجح الفرنسيون في فتح ثغرة في جزء من الأسوار. والثغرة فتحة كبيرة في الجدار. ظن جنود نابليون أنهم يستطيعون التقدم منها والاستيلاء على المدينة. بدت أمامهم الفرصة التي انتظروها منذ أسابيع.

لكنهم حين عبروا الفتحة، واجهوا عائقاً جديداً: فقد بنى المدافعون سوراً دفاعياً ثانياً خلف الجزء المهدم. فتضرر السور الأول لم يكن يعني استسلام عكا! كانت قوات أحمد باشا والمسؤولون عن تنظيم الدفاع قد استعدوا لهذا الاحتمال. وتوقف الهجوم هنا أيضاً. وفي اللحظة التي ظن فيها جيش نابليون أن النصر اقترب، أجبر على التراجع مرة أخرى.



وصلت قوات النجدة العثمانية إلى عكا بحراً أيضاً، فازدادت قوة المدافعين. أما نابليون، فكان يتكبد الخسائر في الحصار الطويل، ويواجه الأمراض المنتشرة بين جنوده. وكانت كل هجمة جديدة تزيد جنوده تعباً.

ومع ذلك، واصل محاولاته للاستيلاء على عكا. لكنه لم يستطع كسر مقاومة القلعة. وبقيت المدينة في يد المدافعين بقيادة أحمد باشا الجزار، مستفيدين من المساعدات التي وصلتهم وخطط الدفاع التي أعدوها. وفي النهاية، أدرك نابليون أن مواصلة الحصار لن توصله إلى ما يريد. وقرب نهاية مايو، بدأ الانسحاب. فالجيش الذي أراد الاستيلاء على عكا ومواصلة التقدم كان يعود دون أن يأخذ القلعة.



لم تسقط عكا. وفشلت خطة نابليون للتقدم عبر هذه المدينة. كان إيقاف قائد ناجح مثله انتصاراً دفاعياً كبيراً. وازدادت شهرة اسم أحمد باشا الجزائر، إلى جانب اسم عكا.

ومع مرور الزمن، نُسبت إلى نابليون عبارتان تصفان خيبة أمله بسبب هذا الإخفاق: «جعلني القدر لعبة في يد عجوز». و«لو لم أوقف في عكا، لاستوليت على الشرق كله».

لم يكن أحد يستطيع أن يعرف إن كان نابليون قادراً حقاً على الاستيلاء على الشرق كله. لكن هناك حقيقة واضحة: لقد أراد أن يستولي على عكا، ولم ينجح. فالدفاع الذي قاده أحمد باشا المسن قطع الطريق على القائد الكبير.



حين انتهى الحصار، بقي في عكا عمل كثير. فقد أضرّت الحرب بالمدينة، وفقد أناس من الطرفين حياتهم. وكان لا بد من ترميم الأسوار، والعناية بالجرحى، وإعادة الحياة اليومية إلى طبيعتها. وصل خبر النصر إلى إسطنبول، وأرسلت المكافآت إلى من قدّموا خدمات جليلة في الدفاع.

وفي صباح أحد الأيام، فُتحت أبواب القلعة للناس الذين يحملون الطعام إلى المدينة. دارت عجلات العربات فوق الحجارة، وعادت أصوات الحياة اليومية إلى الأزقة. ولم تعد البوابة التي دافع عنها أحمد باشا تنتظر هجوم جيش.

جاء نابليون بغروره واعتداده بنفسه، وكانت هزيمته على يد أحمد باشا الجزار صفة لن ينساها أبداً. لم يستطع الاستيلاء على عكا. وبقيت المدينة شامخة صامدة.

